انهيـار المنهـج الـوصفـي

محمـد بنيـس

صدر في بداية يناير 78 كتاب للاستاذ عبد العلي الودغيرى (أستاذ بكلية الآداب بفاس) عن أدب محمد الصباغ أسماه (قراءات في أدب محمد الصباغ).

وهو كتاب يستحق المناقشة ، لأنه صادر عن أستاذ جامعي ، وباحث أكاديمي ، لاشك أن له ، ولوعيه النقدي ، نوعا من التأثير في وسط قطاع من القراء .

ومناقشة هذا الكتاب يمكن تتم من خلال عدة مستويات ، المصطلح النقدي ، المنهج النقدي ، الجانب الوثائقي ، الكشف التاريخي ... الخ . وسنكتفي هنا بتسجيل جملة من الملاحظات ، أثارتها قراءتنا الاولى .

1) يغيب التحديد عن المصطلح النقدي في هذا الكتاب ، حتى ان القارىء يجد نفسه أمام تراكم من المصطلحات لا ضابط لها ، ولا يقعدها منهج نقدي واضح يمكن أن يساعدنا في أحداث تواصل مع الكاتب . وتمتد ازمة المصطلح النقدي من العنوان الى آخر كلمة من هذا الكتاب .

ان العنوان هو أول ما يطرح علينا تساؤلات : ماذا يقصد الودغيري بـ « قراءات » ؟ ولماذا اختار الجمع بدل الافراد ؟ وما هو تعريفه للقراءة ؟ هذه الاسئلة وغيرها تفرض علينا نفسها بالحاح ، خاصة وأن مصطلح « قراءة » Lecture أصبح من بين المصطلحات النقدية الجديدة ، التي طال حولها الصراع في النقد الأروبي الحديث ، الذي لا نظن ان الناقد الودغيري على علم به ، وهذا يتضح في الدلالة التي يمكن جمع شتاتها من خلال « قراءاته » للصباغ .

وما معنى « قراءات » ؟ هل هي مستويات من القراءة (نظمية ، دلالية ، تاريخية اجتماعية) ؟ أم هي مجموعة قراءات انجزها عدة كتاب وباحثين لأدب الصباغ ؟

والحقيقة اننا سنغالي اذا تتبعنا مسار مثل هذا الاستقصاء في تحديد دلالة « قراءات » عند الودغيري ، لأن هذا التحديد غير وارد في ذهن الكاتب ، ولا في ممارسته النقدية . وربما كان سبب تعويم المصطلح راجعا لكون الناقد

نفسه فوق المصطلح وتحديد موقفه من الصراعات الدائرة حوله ، وهذا يعطي ، بالتالي ، فرصة لاستعمال لغة مطاطة ، بعيدة عن التحليل العلمي لادوات الممارسة النقدية ، تعرقل بالتاكيد وعينا النقدي ، وتعود به لمراحل سابقة ، ومتخلفة حتى عن نقدنا القديم .

أزمة المصطلح النقدي في هذا الكتاب ملتصقة بأغلب ما كتبه الناقد ، وللتدليل على ذلك نأتي بفقرتين كنموذج . جاء في الصفحة 44 « ... ولعل أهم ما يميز هذه الشاعرية هو العبارة الصافية المتخيرة بذوق رفيع والصور الخيالية التي يفتنها ويولدها من الاشياء البسيطة » . وفي ص. 78 ـ 79 « ان الصباغ مصور بارع كما يبدو في هذا الكتاب (فوارة الظمأ) كل شيء يذوب ويطوع بريشته الدقيقة الحساسية ، فتخلق منه أكوانا وعوالم يعز على الكثيرين ادراكها في عالم الخيال ، فأحرى أن يستطيعوا صنعها واخراجها في شكل موجودات حية ناطقة ، ولذلك تعجب منه أحيانا وأنت تراه يقف أمام المناظر الجامدة الجافة ، فيحركها كما يشاء ، ويحاورها ويكلمها باللغة التي يريد ، فلا تجافيه ولا تتابى عليه ، واحيانا اخرى يعمد الى الفكرة الغامضة المعماة ، فيتقمصها ويجسم روحها ، حتى لتكاد تلمسها يداك ، ثم لا ينسى أن ينمنمها بشيء من طلاوة الرمز ، وعذوبة الايحاء ، مما فطرت عليه نفسه ، فتخال اذنك التي تسمعها مسبوكة بعبارته ، انها صورة ما وقعت قط في حسبان أرباب النثر ... » .

هذان النموذجان كافيان للتدليل على أزمة المصطلح النقدي في الكتاب ، وعلى الاستيلاب الفكري الذي يعيشه الكاتب ، فهو يتحدث وكانه وحيد في غرفته ، يفك الالغاز بالالغاز ، ويواجه النص الادبي بنص أدبي آخر ، يتهافت ويعتم ، يجرد المصطلح النقدى القديم من استعمالاته ـ وكم عانى الدارسون والباحثون من مشكلة المصطلح في النقد العربي القديم ـ ويسلب النقد التاثيري بعض مصطلحاته ، ويخلط بين التحليل والانبهار ، وغالب ما يلجا لتضخيم النص ، فيصدر الاحكام المطلقة ، متناسيا التراث العربي بكامله ، والتراث الانساني بأجمعه .

مظهر آخر من مظاهر أزمة المصطلح في هذا الكتاب يتجلى في استعمال « الشعر الحر » في مقام لا يلائم المقال ، حيث ان الصباغ لا يستعمل غير « الشعر المنثور » (صـ 47) في ما اسماه الودغيري « الشعر الحر » ، بل ان الكاتب نفسه يتراجع في الصفحة 49 عن استعمال مصطلحه ، ويوظف مصطلح « الشعر المنثور » .

هكذا يصبح المصطلح النقدى عند الكاتب مجرد لعبة يلهو بها . يركبها ، ويفككها ، دون أن يتامل لحظة واحدة في صنعة الناقد التي تقوم أساسا على تحديد المصطلح . ان مثل هذا الاستعمال للمصطلح النقدي ليس الا استظهارا لذاكرة مضطربة ، هي في حاجة للضبط وصرامة التحديد ، وربما ظن الكاتب أن مثل هذا التعامل مع المصطلح النقدي يغطيه اطلاعه على بعض الادلة اللغوية القديمة ـ انسياقا مع قراءاته اللا واعية لهذه الدلالة ـ

بعد أن يتوهم أنه يوظف معرفته توظيفا قمعيا ، لا يمكن أن يتجاسر على مناقشته القاريء العادي .

2) ان أزمة المصطلح في هذا الكتاب جزء من أزمة المنهج ، يواجه الكاتب ادب الصباغ دون تقديم أي تعريف للمنهج الذي سيقوده في « قراءات » ـه ، صحيح انه افتتح الدراسة بحيرته أمام تصميمين ، يسمي الاول بالتصنيف المرحلي (ص 21) والثاني بالتصنيف النوعي (ص 22) ، ويختار في النهاية التصنيف المرحلي (ص 23) ، على ان هناك فرقا لا يخفى على أهل الاختصاص بين التصميم والمنهج ، ورغم غياب تعريف الكاتب بمنهجه فان من الممكن تكوينه من خلال المتن النقدي ، الذي هو الغرض من تأليف الكتاب .

لم تتعد « قراءات » الودغيرى لأدب الصباغ المنهج الوصفي ، بالمعنى المتخلف لهذا المصطلح العلمي ، ان الكاتب يذكر لنا في مطلع كل « قراءة » ما أحصاه من عدد القصص أو القصائد أو المقالات في الكتاب الذي يتناوله ، ثم يورد مقاطع من الكتاب المدروس في كل « قراءة » على حدة ، ويبدأ في تكرار واجترار ما قاله الكاتب ، قصة قصة ، أو قصيدة قصيدة ، أو مقالة مقالة ، وفي بعض الحالات فقرة فقرة ، يضع ما يمكن أن نسميه بالهوامش على الطريقة التقليدية ، مما يقتل النص ، ويلجم الطاقة الابداعية عند القاريء ، وهي الطاقة التي من المفروض في الناقد ان ينميها ، ويحررها من التكلس الذي أصابها ، بفعل الثقافة السائدة المنافية لكل ابداع . ويستتبع الناقد هاتين المرحلتين بتعليق ذي نفس قصير ، يختلط فيه الشرح المدرسي البسيط بما يظن أنه تقويم للنص ، فيلقي الذعر في نفس القاريء ، ويسدد النصائح للكاتب (أنظر هامش ص 81) . هذا هو النقد في عرف الودغيري ، وهذا هو أقصى ما وصل اليه في « قراءات » ـه لأدب الصباغ .

نظن أننا وصلنا الى هذه المرحلة من وضع أوهام النقد البرجوازي أمام حقيقته . ونتساءل ، ونحن نقرأ هذا الكتاب (والقراءة هنا نستعملها كمصطلح موضوعي) ، اين هي الحدود الفاصلة بين نصوص الصباغ ونقد الودغيري ؟ وما هي دلالة استشهاده بما يقارب خمسين نصا من نصوص الكاتب ؟ (في بعض الحالات ينقل صفحتين شبه كاملتين ص. 47 ـ 48 مع العلم أن صفحات الكتاب بكامله لا تتجاوز 109 صفحة) .

ان الناقد عندما لجأ الى اتباع المنهج الوصفي اتكأ على أوليات هذا المنهج ، وقد كان بودنا أن نواجه قراءة وصفية ، لأن من الممكن الاستفادة منها ، في هذه المرحلة من بلورة وعينا النقدي ، ولكن على أساس استيعاب أحدث معطيات هذا المنهج البرجوازي فعلا في أوربا وأمريكا . ولكن متى كانت برجوازيتنا في مستوى البرجوازية الأوروبية ؟ وحتى متى وبرجوازيتنا سادرة في وهمها وتخلفها وجهلها ؟ ان المنهج الوصفي الآن ، وهو الذي يسمى بالمنهج البنيوي (مع العلم أن هناك مناهج علمية موضوعية ، أي تقدمية ، داخل هذا المنهج) ، يعتمد على تفكيك البنيات اللغوية (والاستاذ

يدرس فقه اللغة) ، ويكشف عن قوانين النص ، وتداخلاته النصية ، حتى يصل في النهاية الى القبض على قوانين لعبة النص .

ان الودغيري لا يفعل أي شيء من هذا ، انه ، بكل بساطة ، يلغي النص ، ولذلك سقط في تناقض عندما سجل النقطتين ، الرابعة والخامسة ، من خلاصاته ، فهو في النقطة الرابعة يعتبر الصباغ « صاحب مذهب فني أصيل ومتفرد » (ص 109) ، وفي النقطة الخامسة يكتفي باصدار حكم على أعمال الصباغ ينافي الحكم الاول فيجعلها مجرد « وثيقة تاريخية » (ص 109) (واستعماله للجملة الاعتراضية ـ لاسيما في المراحل الاولى ـ لا تنفي هذا الحكم عن المراحل الاخرى) .

لماذا كان المنهج الوصفي برجوازيا ؟ لانه بالضبط ينظر الى النص الادبي كذرة مغلقة ، لا علاقة له بالمجال الخارجي ، الاجتماعي والتاريخي . فالمنهج الوصفي ، البارد ، يمكن في بعض الحالات أن ينقب عن بنيات النص ، الجزيئية والعامة ، ولكنه عاجز تماما عن البحث في الاسباب الموضوعية التي ادت الى وجود نص من النصوص على هذه الشاكلة ، دون غيرها ، من التبنين .

ولكن المنهج الوصفي الذي استخدمه الودغيري يعجز عن أن يكون « عصريا » ، كما يعجز عن أن يكون مفسرا . ان الناقد هنا ، ينبهر أمام التقنيات السرية التي اعتمدها الصباغ في تركيب نصوصه ، كما ينبهر أمام بعض مظاهر الطبيعة ، دون أن يمتلك القدرة على تعليل وجود هذه التقنيات بدل غيرها في أدب الصباغ ، ودون أن يتمكن من رؤيا الكاتب للعالم ، ودون أن يفسر لنا الاسباب الموضوعية التي جعلته يركز على الذات ، ثم الاسباب التي أدت به الى ما يصفه بالتطور .

يتحول الكاتب عند الودغيري ملهما ، وانتاجه استنساخا للمثال (بالمعنى الفلسفي لهذا المصطلح) ، فوق المجتمع والتاريخ . ان الناقد قد يسجل لنا بعض الوقائع التاريخية (المقدمة كنموذج) ، ولكن توظيفه للتاريخ يبقى خارج المجال العلمي ، وبعيدا عن تأكيد فعالياته في تحديد الوعي التاريخي والطبقي للصباغ ، ولذلك يصبح المنهج الوصفي عند الودغيري مجرد ذكر للملاحظات العابرة ، لا تتجاوز عكس ما حركه النص في وجدانه ووعيه بشكل جزئي وهامشي ، وقد قاده انبهاره أمام الصباغ الى العجز عن مواجهة المتن ، أو محاورته . وهذا ما يجعل المنهج مثاليا ، يفصل بين الادب والواقع ، كتفاعل مرئي ولا مرئي ، وبالتالي ينزع عن الادب صفته الاجتماعية ونسبيته التاريخية .

3) لم نكن ننتظر من الودغيري أن يكون من المومنين بالمنهج العلمي ، الاجتماعي والتاريخي ، بمفهومه الجدلي ، ومع ذلك كنا ننتظر منه على الاقل أن يمدنا بوثيقة تاريخية (خاصة وأنه اتصل بالكاتب عدة مرات ـ أنظر هامش ص 18) ، تجمع بين الرواية ، واثبات الوثائق ، والتدقيق في الوقائع التاريخية للثقافة المغربية ، وتوضيح الغامض منها ، وتصنيف هذه

المعلومات التي نحن في أمس الحاجة اليها ، حتى يصبح هذا اكتاب مرجعا للباحثين . والحقيقة أن الودغيري لم يقم باي مجهود جدي في هذا المجال أيضا ، فهو يستعرض بعض المعلومات الجزئية ، ويتغافل عن التدقيق في قضايا تاريخية ، ويورد بعض المعلومات التي هي في حاجة الى اثبات .

نثير قضية تاريخية واحدة كنمـوذج للنقص الذي يسيطـر على هـذا الكتاب ، وهي المتعلقة بظهور قصيدة النثر بالمغرب . يقول الودغيري « وعلى كل حال ، فقد كان الصباغ من السباقين الى تلبية هذه الدعوة ، ومحاولـة تطبيقها في المغرب ، بل كان ذلك قبل اي شاعر مغربي يكتب العربية ـ فيما نحسب ـ » (ص 49) . هل كلف الباحث نفسه عنـاء البحث في المجـالات والصحف المغربية ، قبل أن يصدر مثل هذا الحكم الذي لا نسمح بصدوره عن باحث أكاديمي ؟

ان الرجوع الى الصحافة المغربية يدلنا على مجموعة مهمة من قصائـد النثر منشورة قبل قصائد الصباغ بما يناهز عشر سنوات ، بحيث نجـد مجلة « الثقافة المغربية » تنشر قصيدة النثر منذ 1942 ، لكل من محمـد الحبابي وعابر سبيل (ادريس الجاي) ، ويمكن أن نراجع على الاخص أعداد نوفمبر ـ ديسمبر 42 ، ونوفمبر ـ ديسمبر 44 ، ويوليوز 45 . ولا أريد هنا ان أتقدم بلائحة للشعراء الذين نشروا قصائد نثرية في هذه الفترة ، وبعدها بقليل ، لأن هذه الكلمة القصيرة لا تتسع للتعيين والتحديد الشاملين .

فهذه الملاحظة وحدها ، وغيرها كثير ، تدل على ان الودغيري لم يتحمل مشاق البحث ، بل ربما استصغر ما يقوم به في حق أديب قال عنه الكاتب بنفسه « انه صاحب مذهب فني أصيل ومتفرد » (ص 109) ، ولاشـك أن الصباغ في حاجة لمن يدرسه بجدية وعمق .

4) كانت للودغيرى « رغبـة في تحصيـل رؤية متكاملـة غير مبتـورة ولا مقصورة على فترة دون اخرى ، أو عمل دون سواه » (الخاتمة ص 108) ، حسب تعبيره ، وبقدر ما كان طموحه كبيرا جاء عمله على العكس من ذلك ، قاصرا ومبتورا ، لا يحدد المصطلح النقدي ، ولا طاقة له على تبني المنهـج العلمي ، أو مدنا بوثيقة تاريخية .

لكل هذا نرى في كتاب الودغيري نموذجا للعجز الفكري الذي أصبح ميزة أساسية للمنهج الوصفي ، البرجوازي حتما ، داخل المجال النقدي بالمغرب ، يتخلف في رؤيته ومنظومته الفكرية يوما بعد يـوم ، ويعجـز عن تعليـل الظواهر ومحاورتها ، ولذلك يجمل « قـراءات » ـه في جملة من الملاحظـات الوصفيـة والانطباعيـة .

ان القراء والمثقفين سينسون هذا الكتاب في فتـرة أقل من تلك التـي فصلت بين كتابتـه وطبعـه .